# صورة الأخر المغترب بين حيرة الذات و رفض المجتمع في رواية ساق البامبو لسعود السعنوسي

حمزة مساعدي

## مقدمة:

إن موضوع رواية ساق البامبو للروائي الكويتي سعود السعنوسي المتصل بصورة الآخر المختلف من ناحية الدين، من ناحية المستوى، ومن ناحية العادات والتقاليد، يمثل حالة جديدة في الكتابة الروائية في المجتمع الخليجي، وتتبع تلك الصورة في نص روائي يعكس بالضرورة تمثلات مختلفة لذلك الآخر المرفوض، بطريقة تصبح معها الكتابة عن الآخر ضربا من كتابة الذات نفسها في صورة الآخر بكل تناقضاتها، والتي يفترض أن تكون حالة من حالات مابعد الحداثة، بمعنى اغتراب الأخر الحائر هو تعبير عن اغتراب وتناقض الذات العربية بين المحافظة على العادات والتقاليد وبين إتباع الأهواء والرغبات. وتكمن الإشكالية الأساسية للمداخلة، في محاولة تتبع صورة الآخر الحائر المرفوض في مجتمع عربي محافظ داخل متن الرواية الكويتية كظاهرة جديدة، وفق منظور النقد الثقافي، كإستراتيجية مابعد حداثية لقراءة النصوص الإبداعية. فكيف تجلت صورة الآخر في الرواية؟ وكيف استفز هذا الآخر الذات؟ وما هي خصائص هذا الآخر المغترب الحائر الذي يعاني من سلطة السمعة والمجتمع الرافضة له؟ تتحدث الرواية عن جوزفين القادمة من الفلبين للعمل كخادمة في منزل أحد أثرياء الكويت، وسرعان ما يتعلق بها الابن راشد المدلل الوحيد للعائلة الثرية، فيقرر الزواج منها بعد قصة حب. يتزوج راشد من الخادمة بشرط أن يبقى الزواج سرا، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فتحمل جوزفين وتلد ابنا أسمته خوسيه، ولكن الأب يتخلى عن ابنه، ويقرر سفرها مع ابنها إلى الفلبين وهو لم يتجاوز السنتين، مع وعده بأنه سيستعيده إلى الكويت عندما يكبر في الفلبين يعيش الطفل حياة صعبة، وعندما يكبر يقرر العودة إلى بلاد أبيه الكويت وهو في عمر الثامنة عشرة، الأرض الحلم أو الجنة كما صورتها له أمه منذ كان طفلا، ومن هنا يبدأ فصل أخر من الرواية، وحين يصل هوزيه إلى الكويت بعد موت أبيه أثناء مقاومته للاحتلال العراقي للكويت، تكون تلك العودة نتيجة لوفاء غسان صديق والده، الذي قام بمهمة عودة هوزيه، إلى الكويت، وحين يصل، هوزيه للكويت لا تعترف عائلة أبيه به، وتتنكر له، لا سيما جدته لأبيه، وبعض عماته، ويقع أمام تناقضات تجعله في حيرة شديدة من عدم تقبله كأحد أفراد عائلته عيسى الطاروف كما يصبح حاجز اللغة والدين عائقا أخر يوقعه في مفارقات وتصرفات يصبح عاجزا عن تفسيرها،

يضطر عيسى /هوزيه إلى التعايش مع هذه الحال فيعيش في مكان سري ومعزول عن المنزل العائلي، كأحد الخدم الفلبينيين عند أل عيسى الطاروف، ولا يلتقي إلا بأفراد العائلة ويختفي عند حضور الجيران والاقارب، يتمنى عيسى/هوزيه، من كل قلبه أن تتقبله عائلته من أبيه، فيما تأبى هذه العائلة قبوله، ولا تتعاطف معه إلا أخته من أبيه، وإحدى عماته فقط، في إحدى مناسبات العيد حين تنادي عمته ابنها عيسى الصغير، أثناء وجود اقارب العائلة وأصهارها يظن عيسى أنه هو المقصود فيظهر أمام الجميع مسببا حرجا بالغا أمام استغراب أزواج عماته في دخوله المفاجئ وسطهم وبين نسائهم، فتتدارك عمته الموقف لتطلب منه أن يحمل بعض الأغراض إلى السيارة بوصفه خادما، ثم تقرر العائلة أن يسكن عيسى بعيدا عن المنزل في الحي نفسه لتستأجر له شقة، ويجد عملا بإحدى المطاعم، ومن هناك يرصد عيسى بعض أحوال المجتمع الكويتي بغرابة، وحين يلتقي بأحد الكويتيين الذين التقاهم في الفلبين تتجدد علاقة صداقته معهم في الكويت فيفرح بتلك العلاقة، لكنه حين يعرف نشاط أصدقائه في الانتخابات الكويتية


ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

**لصالح عمته هند الطاروف لا يكتم السر، فيصارحهم بأنها عمته، وهنا تصل تناقضات الرواية إلى ذروتها حيث تهدده عمته بالعودة إلى الفلبين لكنه يصر على أنه ابن راشد الطاروف ويشهر أمامها ورقة عقد زواج أمه جوزفين من أبيه راشد، في النهاية يعجز هوزيه/ عيسى، عن الاندماج في المجتمع الكويتي، بقدر محاولته المستمية في أن يكون أحد أفراد عائلته الصغيرة ومجتمعه الكبير، لكنه يجد نفسه معزولا ومنبوذا في هذا المجتمع نتيجة لطبيعة هذا المجتمع الذي لا يتقبل ملامحه الفلبينية، فيضطر للعودة إلى الفلبين، ويتزوج من بنت خالته وتكون المفاجأة في النهاية حين ينجب ولده راشد الذي يحمل شكل جده راشد الطاروف.**

## صورة الأخر في الرواية العربية:

إن الأخر في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض الذات والأنا١، ولا شك في أن ما يشهده العالم اليوم من تجاذبات سياسية وصراعات طائفية ونزاعات عنصرية انعكس أثره على الذات التي شعرت في كثير من الأحيان أنها في الصراع مع الأخر المختلف عنها دينيا أو ثقافيا أو حضريا، فتباينت المواقف تجاه هذا الأخر المختلف عنها دينيا وسياسيا٢، حيث سجلت الرواية العربية نصوصا سردية متعددة في الكتابة عن موضوع الأخر ضمن المتن السردي في تلك الروايات، وكان هذا الآخر في الأغلب الأعم هو الغرب الاستعماري والغرب الحضاري فيما بعد.

ولعل من ابرز الملامح التي عكست صورة الأخر/ الغرب في الرواية العربية، تجنيس العلاقة، إذ صورت الروايات الأولى في هذا الصدد صورة الأخر ضمن علاقة الأنوثة والفحولة بحيث يظهر الغرب في تلك الروايات كأنثى في الغالب فيما يظهر الشرق كرجل فحل، أي عبر إضمار العلاقة بين الغرب والشرق"من خلال تجنيس العلاقات الحضارية"٣، كما جسدت جملة من الروايات العربية رؤى مختلفة للأخر الغربي لعل ابرزها بحسب تلك الروايات هي: الرؤية الانبهارية: وهي تلك الرؤية التي تقوم على الدهشة والانبهار أو تلك النظرة الأولى للأنا وهي تتأمل منجزات الأخر المماثل أو المخالف...ونستحضر رواية رفاعة الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز"٤.

فالرؤية الحضارية تعكس إقرارا بالتقدم على صعيد المدينة والتقنيات الحديثة، والنظم، مع الادراك بحقيقة الفارق الحضاري بين الشرق والغرب، وهذا ما عبرت عنه الكثير من الروايات العربية بشكل واضح وجلي كرواية الحي اللاتيني لسهيل إدريس، وموسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، والأيام لطه حسين، وقنديل أم هاشم ليحي حقي"٥.

## الأخر كمستفز للذات في رواية ساق البامبو:

الأخر القريب هو أخر خاص ومختلف عن الأخر المغاير، فهو ذلك الأخر الذي يشارك الذات إحدى خصائصها الجوهرية، أي ذلك الأخر الملتبس في اختلافه والملابس في تماثله، فهو التحدي والإشكال، وهو التهديد الماثل دوما"٦، ولهذا تحاول الذات إثبات اختلافاها عن الآخر الشبيه عبر نفيه وتغييبه، لأن في وجوده أمامها تذكير بذلك الشبه.

فكل ذات تنفي أخرها الشبيه الملابس لها في إحدى صفاتها الجوهرية، كصلة القرابة مثلا، لاسيما في ظل مفاهيم وتصورات تحكم وعي الناس وعقلهم الباطن عبر الإعلاء من شأن الذات المتماهية مع نفسها وأصلها الواحد.

وهكذا فانتماء الذات لذلك الاصل الواحد الذي تفرضه سردية جماعية تنهض على السمعة ونقاء الاصل سيجعل من تقبلها للأخر القريب، أو الاعتراف به هدما لتلك السردية وبما أن السردية هي نمط من الخطابات التي تتمركز حول افتراضاتها المسبقة ولا تسمح بالتعددية والاختلاف حتى مع تنوع السياقات الاجتماعية والثقافية، فضلا عن أنها تنكر امكانية قيام أي نوع من أنواع المعرفة أو الحقيقة خارجها وتقاوم أي محاولة للتغيير أو النقد أو المراجعة، تقف تلك الخطابات أو السرديات الكبرى خارج الزمن ولا تسمح بالشك في مصداقيتها وتصر على أنها تحمل في داخلها تصورات شمولية للمجتمع والثقافة والتاريخ والكون، ودائما ما تكون السرديات الكبرى ذات طبيعة سلطوية واقتصادية تمارس التهميش ضد كل أنواع الخطابات الأخرى الممكنة"٧.

وفي النقاشات الثقافية المعاصرة تعددت التأويلات التي تدرج الأخر ضمن سياقات مختلفة، لكن أبرز تأويلات الأخر ضمن سياقات مختلفة، لكن أبرز تأويلات الأخر وتمثيله في الثقافات التقليدية والمجتمعات المختلفة تتمثل في تلك العلاقة التي تقترن بالاستجابات العنصرية

والمرتهبة من الأجانب ويرى كونيليوس كاستورياديس أن "العجز الواضح عن تكوين الذات كذات للمرء من دون استبعاد الأخر...إنما هو قرين بالعجز عن استبعاد الآخرين من دون الانتقاص من قيمتهم، ومن ثم كرههم، وفي عملية وجود الأخر تسلط مشاعر السخط والعدوانية والكراهية على من يعتبرون أشخاصا قرباء أو ثقافات غربية على نحو خطير"٨.

ومن خلال تلك الخصائص لسردية الذات عن نفسها يقع الأخر ضحية لتصوراتها الشمولية أي ضحية للإقصاء والتهميش والنفي والتغييب، في حين أن تلك السردية لا تفعل فعلها وأثرها على الأفراد إلا كسلطة جماعية غير قابلة للاعتراض أو للمسائلة، وطبيعة اشتغالها على وعي الفرد وتأثيرها فيه أشبه بإكراهات العقل الباطن، فهي هنا تتجلى ضمن نطاق التفكير الذي هو أشبه بالتابو وهو ما يلاءم (حالة ما بعد الحداثة) أي ذلك التفكير المسكوت عنه ولهذا فإن ردود فعل الجماعة تجاه الآخر الحميم هنا تمارس إكراهاتها ونفيها لذلك الاخر بعيدا عن أي تكييف أو معنى واضح لفعل النفي والاقصاء بل عن حد أدنى لمعنى القيمة الإنسانية للإنسان.

ووفق هذه الحالة الحداثية، تنعكس صورة الأخر أمام نفسه كحالة من حالات الاغتراب ، والحيرة، والتناقض، فهو هنا يجد نفسه تماما حيال تنازعات نفسية شديدة قد لا يعرف تبريرها العقلاني والإنساني في سلوك الذات الجماعية حياله، ولا في خضوعه لتلك التمثلات التي تفرضها تلك الذات عليه، لكنه يظل مضطرا للتكييف مع تلك التناقضات الى حدود قصوى، إما أن تؤدي في النهاية إلى انفجارها بصورة واضحة لتعارضها مع الفطرة الإنسانية وفي هذه الحالة سيكون الآخر هو صاحب القرار في ذلك، وإما تتحول علاقات الذات مع الآخر إلى علاقة إيجابية وإنسانية، وفي هذه الحالة سيكون ذلك التحول نتيجة لاهتزازات كبرى في وعي تلك الذات وهي اهتزازات لا تسمح بها في العادة التحولات السريعة في المجتمعات المحافظة، كما أنها تأتي نتيجة لجملة من الشروط والمفاهيم المتصلة بالوعي والفردية، والاتصال والاختلاط الانساني العميق بمجتمعات العالم الحديث وتحولاته.

هكذا سنجد محنة الآخر في المجتمعات المحافظة، والمنفعة على سردياتها الخاصة، محنة فريدة ولا يمكن أن تخضع تناقضاتها إلى شروط الوعي الانساني، ولا إلى القياس الاخلاقي العام في العلاقات الانسانية بقدر ما تخضع لإكراهات وضغوط تفرضها السردية الخاصة للذات بوصفها تابو مسكوت عنه، وعلى أحد طرفي العلاقات وفق منطق التابو هذا (وهو هنا الذات في مواجهة الأخر) تأسيس ردود أفعاله بطريقة تناقض الفطرة الإنسانية عبر إيقاع أفعال تتميز بالنفي والإقصاء والتهميش والتغييب بطريقة غير مفهومة ولا معللة، خصوصا حيال الأخر الزوج، مما يعني أن ضغط مجتمع كامل يقف وراء تلك التصرفات التي هي بمثابة السرديات أو: "تنميط ثقافي يتعلق برؤية جماعية من الجماعات لعناصرها وتاريخها ولرؤيتها لغيرها من الجماعات"٩.

وبهذا يمكننا أن نرى طبيعة ردود الافعال التي ينتجها الافراد العاديون والخاضعون لسردية تصور الذات الجماعية عن نفسها دون قدرتهم على تغيير سلوكهم، خوفا من السمعة السيئة، أو من العزل والتشويه الذي سيصيبهم في حال قبولهم بالاخر الذي يشاركهم علاقة خاصة وسرية، وهنا تتحول الاستجابة لتصورات الذات الجماعية، تحديا ضد الفطرة يشتغل على قمع الإحساس الانساني، ويحوله إلى نقيض، فتتحول عاطفة الحب إلى كره، والقبول إلى رفض، والانتماء إلى نبذ، والقرابة إلى إنكار، وهذا تماما ما يتطابق مع حالة مابعد الحداثة، وما عناه بطل الرواية هوزيه/عيسى خلال تجربته مع عائلة أبيه في الكويت.

## الخصائص النفسية للأخر في الرواية:

اغتراب الذات: فهوزيه /عيسى منذ البداية يعاني من ما يشبه الاغتراب في مكان نشأته، وبالرغم من إحساسه بالألفة في المكان الذي عاش فيه طفولته وصباه إلا أنه كان يختزن تصورا أخر للعيش في بلاد ابيه، ذلك أن والدته جوزفين التي تركت الكويت مكرهة، بعد حدوث حملها من راشد، ظلت ترسم باستمرار لطفلها العالم الذي يليق به من حيث العيش والانتماء، وبهذا ظل هوزيه مشدودا إلى الكويت بفعل الصورة الذهنية التي رسمتها له والدته، ومن خلال هذه الازدواجية التي ولدت لديه اغترابا عززه ذلك النسب البعيد عن أهل والدته ظل هوزيه/عيسى يعيش على واقع الحلم الذي ينتظره في الشباب بالعودة إلى موطن أبيه، كما أن أحوال الفقر المدقع التي كان يراها في البيئة من حوله، بموازاة ما رسمته له والدته من أحوال السعادة وعوالم الثراء التي سيجدها في موطن


ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

أبيه، كانت حافزا له ليرتبط بذلك الحلم ثمة أسباب أخرى جعلت من هوزيه/عيسى مغتربا عن واقعه، حيث وجد من جده لوالدته صنوفا من العنت والعناء والقسوة في المعاملة على خلفية نسبة الغريب، جعله أكثر نفورا من العيش من ذلك المكان رغم حبه له، ولهذا عندما تعرف هوزيه /عيسى بعد ذلك عن بعض الشباب الكويت أحس معهم بألفة وحميمية أيام عمله في ميناء بوراكاي.

وبالرغم من أن تقنية السرد الروائي جعلت من اللقاء الأول لهوزيه/عيسى بالشبان الكويتيين الخمسة، تمهيدا لأحداث أخرى تجري فيما بعد مدينة الكويت، إلا أن ذلك اللقاء الذي طرب فيه هوزيه/عيسى وتغنى ورقص فيه مع الشباب كان بمثابة طيف ما لحياة قادمة في مواطن أبيه، إن الكاتب حين يرسم تلك الألفة من خلال السياق يوحي للقارئ بالكثير من الدلالات والمعاني المتصلة بالحنين المفتقد والغامض إلى جذور بعيدة، يقول هوزيه/ عيسى واصفا شعوره بعد ذلك اللقاء مع الشبان الكويتيين:"تتملكني رغبة في أن أتبعهم ...أن أناديهم هيي، توقفوا اسمي عيسى أنا واحد منكم ...انتظروني"١٠، كما يتصل الاغتراب بمعنى التيه في بعض الحالات التي يتعرض فيها هوزيه/عيسى لضغط الواقع المغترب وإكراهات الحياة التي تضعه باستمرار على سؤال الذات في كل مرة" من كان بوسعه أن يقبل بأن يكون له أكثر من عائلة، سوى من تاه في أكثر من اسم، أكثر من وطن، أكثر من دين"١١.

**الحيرة:** تعكس شخصية هوزيه/عيسى بعض ملامح الحيرة الناشئة من طبيعة وضعه الملتبس بين بلدين، ولغتين، ودينين، هي ظاهرة مابعد حداثية في الرواية، وبالرغم من أن بدايات عيسى في ارض ميندوزا التي عاش فيها في الفلبين، كانت بتعميده في الكنيسة على يد خالته أيدا إلا أنه لم يشعر يوما من الايام بذلك الانتماء إلى المسيحية يقول هوزيه/عيسى عن هذه الحالة "ليس هناك ما يميز علاقتي بالكنيسة في بلادامي فزيارتي لها قليلا جدا"١٢، ومن هذا الالتباس نشأت الحيرة وتتجلى ظلال الحيرة في أكثر من وجه، وبصورة تخترق جميع الحالات التي حاول فيها أن يندمج في محيطه الذي وجد نفسه فيه، وبالرغم من أن الكاتب حاول أن يجعل علاقة هوزيه/عيسى بالأديان علاقة إنسانية عابرة لمختلف الأديان، إلا أن انعكاسات الحيرة كانت تلتبس هوزيه/ عيسى أمام كل تجربة حاول أن يقترب فيها من الدين يقول هوزيه/عيسى في هذا المعنى الإنساني لموضوع الدين:""هل يجعل مني التعميد مسيحيا وهل قبلت بالمسيحية دينا في طقس حضرته في حين كانت ذاكرتي لا تتسع لشيء بعد...لكل منا دينه الخاص نأخذ من الأديان ما نؤمن به ونتجاهل مالا تدركه عقولنا أو نتظاهر بالإيمان ونمارس طقوسا لا نفهمها خوفا من خسارة شيء نحاول ان نؤمن به"١٣، إن هوزيه/عيسى الحائر بإزاء هويته، ولغته، ودينه، يتعرض لمواقف أخرى تضعه في أحوال أشد حيرة، فيما كان يظن تلك المواقف التي زادت من حيرته سببا للقضاء حالة الالتباس والحيرة التي عاشها طوال حياته في الفلبين، وهكذا حين جاء هوزيه/عيسى إلى الكويت وجد نفسه أمام جملة من التناقضات المحيرة بحيث أصبحت قدرته على العيش بحالة طبيعية تتطلب منه جهدا خارقا للتماسك النفسي والوجداني أمام تلك التناقضات التي تبرز أمامه.

أولى لعجائب التي واجهته منذ مجيئه إلى الكويت هو أن غسان صديق والده الذي وفى بوعده وجاء بهوزيه/عيسى من الفلبين إلى الكويت كما وعد والد هوزيه قبل موته غسان نفسه كان بمثابة مفاجأة لهوزيه، حين علم هذا الأخير أن غسان رغم سحنته الكويتية واندماجه في المجتمع الكويتي وصداقاته العميقة مع عائلة الطاروف إلا أنه مع كل ذلك هو من البدون أي أنه ليس كويتيا، ومحروم من امتلاك الجنسية الكويتية، يقول هوزيه / عيسى:"هو بدون أكره هذه التسمية التي لا أفهمها، رغم ترجمة غسان لها، هو بلا جنسية خلق هكذا...لو كان سمكة سردين منشأها المحيط الأطلسي لأصبح سمكة أطلسية، لو كان طائر في إحدى غابات الأمازون لاصبح طائر أمازونيا، أما أن يولد أبواه في الكويت، ويولد هو الاخر حيث ولدا، لايعرف أرضا سواها، يعمل في سلكها العسكري، ويدافع عنها زمن الاحتلال فهو بدون؟...بدون له خمسة أخوة كويتيين فلتوا هم، وسقط هو في حفرة القانون...من أجل الرب ما هذا التعقيد يا غسان"١٤. بهذا تصبح حالة غسان المحيرة لهوزيه/ عيسى بمثابة تدريب وتمرين على حياته القادمة في الكويت والتي ستصبح أكثر غرابة من حياة غسان ذاتها.

### اغتراب هوزيه/عيسى وحيرته في المجتمع الكويتي:

منذ البداية واجه هوزيه/عيسى في

الكويت مفارقات اجتماعية جعلته أكثر حيرة واغترابا، وخلقت لديه تشويشا كبيرا للصورة الذهنية التي رسمتها له والدته جوزفين عن مصيره الذي كان يحلم به في الكويت، فمعاناة هوزيه/عيسى التي لحقته لقاء قبوله بالرغبة في الاندماج داخل عائلة أبيه كانت أكثر من قاسية، فقد تلقى ضربات نفسية موجعة جعلته يشك في إمكانية العيش طبيعي كأحد أفراد تلك العائلة، ذلك أن أسباب ذلك التعامل القاسي الذي لقيه من معظم أفراد العائلة في الكويت لم يكن نابعا من حقيقة كونه ابنا لراشد عيسى الطاروف، بل كان نابعا من حساسية السمعة في مجتمع يعيش عليها، وفي عائلته بَنت سمعتها التاريخية داخل المجتمع الكويتي الصغير على نقاء الأصل، بحيث يصبح معها وجود هوزيه/عيسى بملامحه الفلبينية الأسيوية الصارخة بين أفراد تلك العائلة بمثابة تدمير لسمعتها تماما امام بقية العوائل الكويتية العريقة التي تنافسها في السمعة، فهوزيه /عيسى نفسه كان قد عرف من قبل، أن قرار طلاق أبيه لأمه كان خوفا من تشويه السمعة التي تزري بعراقة الأسرة، فقد قالت له أمه من قبل:"القرار لم يكن في يد أبيك لان مجتمعا بأكمله يقف خلفه"١٥.

لقد وجد هوزيه/عيسى منذ البداية تلك المفارقة التي لم يتوقعها مطلقا حين حطت به الطائرة لأول مرة في مطار الكويت، فملامحة الفلبينية فقط هي التي جعلت موظف المطار يطرده من الصف في الصالة عندما وقف أمامه ضمن طابور الكويتيين، وسمع منه كلاما قاسيا لم يكن يتوقعه:"دسست كفي في جيب البنطلون وقبل أن أخرج منه الجواز صرخ بي الرجل بطريقة فظة صفعتني، أشار بيد نحو الطابور الأخر حيث الفلبينيون ومواطنو الدول الأخرى...ذهبت مسرعا إلى الطابور الأخر"١٦.

في حين أن المفارقة الأشد إيلاما كانت في رفض العائلة له، وعدم قبولها به عضوا فيها للأسباب المتصلة بالسمعة والمكانة، فحين يسأل هوزيه/عيسى غسان متعجبا من هذا الوضع ويقول له:"ما شأن الناس بقبولي عند أهلي وكيف سيعرف الناس بحكايتي"١٧، يجيبه غسان قائلا:"كلام الناس هنا سلطة ...ثم إنها ليست حكايتك، هي حكاية عائلة الطاروف، الكل سيعلم بالأمر فالكويت صغيرة"١٨.

لقد وجد هوزيه/عيسى نفسه أمام مفارقة كبيرة، وفضاء اجتماعي مختلف، تعمل على ضبطه وتنظيمه قوانين أخرى فما يعرف هوزيه/عيسى معرفة طبيعية إنسانية قابلة للعقل في أي مجتمع إنساني، كان بالنسبة لغزا كبيرا في هذا المجتمع الذي من المفترض أن يكون جزءا منه بصورة من الصور، فهوزيه/عيسى استعصت عليه، فكرة عدم تقبل عائلة الطاروف له كأحد أعضائها أو جزءا منها لأسباب تتصل بعدم كونه ابنا لراشد عيسى الطاروف، ولا لحقيقة الاقتناع بهذه البنوة من قبل العائلة، وإنما خضوعا لقانون السمعة الاجتماعية ذي السطوة القاهرة والإكراهات العنيفة على سلوك الأفراد في المجتمع الكويتي، وهو قانون يتغذى في عمقه البعيد من فكرة عدم تقبل الآخر المختلف، ولو كان هذا الأخر أخر قريبا، كما في حالة هوزيه /عيسى وعلاقة القرابة التي تجمعه بعائلة الطاروف فالسمعة التي هي (أطول من العمر) في بعض الأمثال العربية ظلت هي الهاجس المقيم لعائلة الطاروف حيال طبيعة علاقتهم بهوزيه/عيسى، حيث كانت الجدة غنيمة تلعن غسان صديق المرحوم عيسى راشد الطاروف والد هوزيه/عيسى لأنه كان السبب في جلب الأخير إلى الكويت فيما كان غسان بفعله ذلك يحقق وفاء لصديقه المرحوم عيسى راشد الطاروف، لكن لعائلة الطاروف رواية أخرى لسبب إحضار غسان لهوزيه/عيسى من الفلبين إلى الكويت.

وتكمن قمة المفارقة في طبيعة امتداد الاسم العائلي لأسرة الطاروف، فراشد الذي كان الولد الوحيد للشيخ عيسى الطاروف لم يخلف إلا هوزيه/عيسى ومع رغبة العائلة الملحة خاصة الجدة غنيمة في أن يرث العائلة ذكر من صلب عيسى الطاروف، تصطدم بمفاجأة غسان للعائلة بإحضاره هوزيه/عيسى من الفلبين إلى الكويت، تنفيذا لوعد كان قطعه لصديقه راشد والد هوزيه/عيسى قبل أن يقتل.

لكن هذا الوفاء الذي قام به غسان تجاه ابن صديقه راشد له تأويل أخر وفق سردية العائلة، وضمن حرصها على مكانتها وسمعتها، فالجدة غنيمة رأت في استقدام غسان لهوزيه/عيسى علامة شؤم حل على العائلة، وفي الوقت نفسه عمل انتقامي من غسان الذي رفضت العائلة زواجه من هند الطاروف أخت صديقه المرحوم راشد، وعمة هوزيه/عيسى، لكن غسان هو شخص مغترب عن المجتمع رغم انتمائه الملتبس له، فغسان من طائفة (البدون) وهي طائفة تعكس حالة جماعية فريدة من الاغتراب داخل المجتمع الكويتي، إذ تنطوي بعض أوضاع


ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

البدون على مفارقة قد تصبح فيها العائلة الواحدة مثلا، بعض أفرادها حاملين للجنسية الكويتية فيما يصبح بعضهم الأخر غير متمتع بذلك الحق.

ولقد كانت مفارقة غسان واغترابه الفريد بمثابة التخفيف الذي جعل من هوزيه يتحمل حالته المغتربة، والإنكار المستمر لأن يكون شخصا منتميا لعائلته التي هي جزء من منها.

لكن العائلة لم تخلو من بعض التعاطف مع هوزيه/عيسى من بين أفرادها، لاسيما أخته خولة وبعض عماته، بيدا أنه في نهاية الرواية يعجز هوزيه / عيسى عن الاندماج في العائلة الصغيرة، رغم محاولاته المتكررة، كما تعجز العائلة عن تقبله ضمن أفرادها نتيجة للضغوط التي تقع فيها سواء لناحية البنية العصبية والعائلية القائمة على النفور من الأخر المختلف، أو لهجة الحفاظ على السمعة والمكانة التي تتمتع بها عائلة الطاروف كإحدى عائلات الكويت الكبيرة.

يعود هوزيه/عيسى إلى الفلبين إلى المكان الذي وجد فيه تصالحا كبيرا مع نفسه ويتزوج من بنت خالته، التي هي أيضا نصف فلبينية ونصف لجهة أبيها الأوروبي الغامض، وينجب ولدا يسميه راشد على اسم أبيه.

## الذات وخضوعها لمقولات المجتمع:

من خلال التأمل في طريقة اشتغال تلك القيم و تمثلاتها على حياة الناس يمكننا قراءة هوية أي مجتمع وتفكيك دلالتها الإنسانية، ورصدها عبر مجموعة من آليات القراءة والتحليل التي قد تفضي في النهاية إلى تكوين رؤية عامة بميزان معرفي يختبر دلالة المعنى وطرق إنتاجه، وطبيعة استجابة المجتمع لتلك القيم المرجعية، وما إذا كانت تلك القيم في ذاتها تنطوي على معان إيجابية قابلة للتمثيل العقلاني.

غير أن آليات اشتغال قيم المجتمع تأخذ طابعها في وعي الأفراد بطرق مختلفة، وتؤثر في إنتاج مواقفهم المتأثرة بتلك القيم عبر العديد من الأنماط السلوكية، والمختلفة في استجاباتها من مجتمع إلى أخر.

في بعض الأحيان قد يكون من الصعب على أفراد المجتمع تفسير سلوكياتهم ومشاريعهم غير العقلانية تجاه الفرد والجماعة، ومع ذلك يتمثلون تلك المواقف والسلوكيات استجابة لإكراهات قيم المجتمع وخوفا من النبذ، أو افتقاد المكانة التي تتوفر لهم في المجتمع من خلال ذلك التماهي.

تطرح رواية ساق البامبو عبر بطلها هوزيه/عيسى هذه الإشكالية بصورة عميقة جدا، وتكشف عن الكثير من التناقضات التي يعبر عنها أفراد المجتمع في استجاباتهم غير العقلانية بل وغير المبررة، فقط من اجل التماهي مع المجتمع، ويتجلى ذلك المأزق من خلال سمتين اساسيتين:

### السمة الأولى السمعة:

يتجنب جميع أفراد عائلة الطاروف في الرواية فكرة إدماج ابن العائلة الغريب هوزيه/عيسى، وذلك التجنب لم يكن بسبب إنكارهم لتلك البنوة من حيث إثباتها أو واقعيتها وحقيقتها، وإنما بسبب الخوف من (سوء السمعة) الذي قد يلحق بعائلة الطاروف حين توافق على ضم فتى ذي ملامح فلبينية إلى أفرادها ذوي الملامح العربية الصريحة، والتي هي موضع فخر تلك العائلة العريقة في المجتمع الكويتي، ومع إصرار هوزيه/عيسى على رغبته في أن يكون فردا في تلك العائلة بجدوى الانتماء إلى أبيه المتوفى راشد الطاروف تقوم العائلة ببعض التدابير التي تحاول من خلالها استقطاب التناقضات، فهي من ناحية تعلم تماما أن هوزيه/عيسى هو ابن العائلة، ولكنها تخاف من إعلان تلك الحقيقة أمام المجتمع جهارا، والشخص المسيطر على العائلة ماما غنيمة رغم رفضها القطعي لإدماج هوزيه/عيسى في العائلة، إلا أنها تقبلت الأمر بالبقاء في ملحق في أعلى المنزل.

مع هذه المحاولة الدائمة لعدم إدماج هوزيه/عيسى في العائلة نتيجة لتلك الملامح المختلفة في وجه هوزيه/عيسى الذي يشبه وجه أمه الفلبينية جوزفين، لكن أحيانا تأتي المفارقة لتضع أحد أفراد العائلة أمام الحقيقة، فعندما سمعت هند صوت هوزيه/عيسى لأول مرة تذكرت فجأة صوت أخيها لكنها قالت لهوزيه / عيسى:"غريب، نظرت إليها أنتظر تفسيرا لما هو غريب، أردفت : لك صوت راشد كأنك هو يلبس وجه غير وجهه"١٩.

فعمته هند تجد في صوته غرابة، والغرابة هي نابعة فقط من معرفة الصوت وإنكار ملامح الوجه، فيما لا يجد هوزيه/عيسى أية غرابة لأن صوته هو يخرج من ذات الوجه الذي ينتمي إليه، لكن المفارقة الكبرى بدت عندما سمعت ماما غنيمة صوت هوزيه/عيسى لأول مرة "فتحت

ماما غنيمة عينيها على اتساعها، رفعت يدها عن طبق الرز أمامها وضعت مرفقها على الطاولة وأسندت جبينها على كفها، ارتبكت، نظرت خولة وعمتي هند إلي، قالت لهما :"أتمنى أن لا أكون قد قلت شيئا أزعجها)، لم أفرغ من كلماتي حتى وجدت جدتي تمسك بطرف الشال الملقى حول رقبتها بإهمال لتغطي به وجهها، انخرطت تبكي من دون صوت، جسدها يهتز بقوة...التفتت عمتي هند إلي، أنفها أحمر وعيناها تلمعان بالدموع، قالت:( أمي تقول ..لك صوت أبيك)"٢٠، في هذا الموقف يتجلى صراع مكتوم بين الحقيقة والمظهر، بين السمعة والاعتراف كما بين العاطفة والموقف، لكن في النهاية تنتصر السمعة على الاعتراف، والمظهر على الحقيقة، والموقف على العاطفة. ونتيجة لهذه التناقضات التي تعيش فيها عائلة الطاروف حيال إشكالية هوزيه/عيسى يتحول قبول هوزيه/عيسى قبولا ناقصا في العائلة، أو قبولا غير رسمي، أي في أن يكون سرا ومتداولا فقط بين أفراد العائلة، لهذا أيضا كانت الصفة التي أقام بها هوزيه/ عيسى في ذلك الملحق من منزل أل الطروف هو فقط بصفته خادما فلبينيا.

هكذا انتصرت السمعة على الحق عند أل الطاروف، وجعلتهم عاجزين عن فعل الصواب، وما يمليه العقل والضمير، لكشفوا بذلك عن الاكراهات الخطيرة للمجتمع التي يفرضها على خيارات أفراده ليتمثلوا قيمه العامة التي تراضى عليها بغض النظر عن قضيتي الخطأ والصواب.

**السمة الثانية رفض الآخر:**

تكشفت الرواية خلال صفحاتها وأحداثها عن مغزى عميق لرفض الآخر المختلف، ولو كان هذا الأخير أخر قريبا يشاطر بعض أفراد المجتمع جوهرا مشتركا فالسمة النابذة للأخر في وعي المجتمع وعقله الباطن هي: الاختلاف سواء أكان ذلك في الاختلاف ملامح هوية الشخص عن النمط العام لسحنات الوجوه التي يعرفها المجتمع أو حتى لجهة الاختلاف اللوني، بالاضافة إلى اختلاف أخر كشفت عنه الرواية وهو ذلك الاختلاف الذي تفرضه الذاكرة الرسمية للدولة والذاكرة القبلية العامة اتجاه جماعة البدون، فالبدون الذين ينتمي إليهم غسان هم جماعة ذات وضع عجيب تشكل تجسيدا عميقا لرفض الاخر في الوطن، ولقد عبر غسان خير تعبير عن هذه الجماعة، حين قال لهوزيه/عيسى:"البدون ياعيسى، جينة مشوهة تتعطل بعض الجينات ولا تصل إلى الأبناء، أو تتجاوزهم لتظهر في الأجيال اللاحقة من ذريتهم، إلا هذه الجينة الخبيثة فإنها لا تخطئ أبدا، تنتقل من جيل إلى آخر محطمة أمال حامليها"٢١.

هكذا يصبح رفض الأخر حالة عامة بإكراه الذاكرة المجتمعية، دون أن يصبح بالضرورة حالة خاصة أو فردية وسرية في الوقت عينه، يقول هوزيه / عيسى:" لم أخطئ حين أخبرت صديقي الكويتي بعلاقتي بهذا الطاروف، ولكنني أخطأت حين لم أطلب منه الاحتفاظ بالأمر سرا، كما أرادت عائلتي، يا لهذه الصغيرة لو كانت كبيرة هل سأضطر لكل ذلك؟ كيف يتسنى للمرء العيش مع كل ذلك الحذر الذي يجب أن يتوخاه في تصرفاته وحديثه وتحركاته؟ أي عار هذا الذي أجلبه لعائلتي حتى وأنا بعيد عنهم؟ و ما هي تلك السلطة التي يملكها الناس على بعضهم البعض؟٢٢، إن قبول التعايش مع تناقضات حالة الرفض التي واجهها هوزيه/عيسى من عائلته عائلة الطاروف هو الذي جعله يقع في تلك الأخطاء التي هي ليست بأخطاء إلا برسم التابوهات التي وضعتها عائلة الطاروف على ذاكرته، لقد كان على هوزيه/عيسى يلغي عقله، ويقمع فطرته، لكي يتعايش مع ذلك الرفض اليومي الذي يتجلى لها في مفردات حياته بصورة جعلته في حالة أشبه بالحالة العدمية الحداثية"عقلي كاد يضمر مثل عضلة مهملة لم أنوِ استخدامه قط لعله هو من فعل ذلك من تلقاء نفسه شعر بالإهمال فانتفض من أين للهواجس هذه القدرة على صرفنا كل شيء عداها؟ تمر الساعات دون أن أنتبه لفراغ معدتي أو حاجتي للنوم ...كيف أمضيت كل هذا الوقت؟ لأول مرة اشعر باللاجدوى"٢٣

عبر استعراض السمات والأحوال التي تجلت في سيرة البطل هوزيه، كنتيجة لآخر حميم وهي أمه الخادمة الفلبينية في رواية ساق البامبو للكاتب الكويتي الشاب سعود السعنوسي خلصت هذه المداخلة إلى العديد من الخصائص التي عكست طبيعة التعامل مع الآخر في الرواية، والتي هي بدورها انعكاسا فنيا للحياة الاجتماعية فقد رصدت هذه الرواية صورة مظلمة للمجتمع في رؤيته للآخر وطريقة تعامله معه، استنادا إلى مجموعة من السرديات والرؤى التي لا تصدر عن أي معنى أخلاقي أو عقلاني يفسر ردود أفعالها تلك حيال الآخر الحميم.

استطاعت رواية ساق البامبو بطريقة


ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

مابعد حداثية أن تعري تناقضات المجتمع عبر أحداثها التي كشفت عن مأزق وحيرة الذات حين تتعرض لإكراهات المجتمع والسرديات السائدة حيال تقبله للآخر الحميم، كتقبل رافض ونابذ لذلك الآخر، دون أي مبرر أخلاقي أو إنساني، سوى الخضوع لتصورات المجتمع وطابوهاته التي خضع لها أفراده، بطريقة تضعهم في تناقض وحرج مستمر مع إنسانيتهم وميولهم الفطرية.

هذه الرواية بتناولها لموضوع الآخر الحميم في المجتمع الكويتي، تكشف بجرأتها الفنية والواقعية عن الكثير من المسكوت عنه حيال هذه القضية في المجتمع الخليجي وهي سمة مابعد حداثية حيث تعري وتكشف كل ما هو غير معروف أو من الطابوهات في المجتمع العربي.

## قائمة المراجع:

١ :ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط٣، ٢٠٠٣، ص٢١.

٢ :انظر: ناصر الدين الأسد، نحن والآخر، صراع وحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١٤١٧،١ه، ١٩٩٧م.

٣ :ينظر: محمد نجيب التلاوي، الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، ١٩٩٨.

٤ :جميل حمداوي(صور جدلية الانا والأخر في الخطاب الروائي العربي)موقع دروب الالكتروني.

٥ :المصدر نفسه.

٦ : صالح بشير، مقال عن الذات والغيرية... الأخر مؤسسا، مجلة كلمن الفصلية عدد: ٣، ٢٠١١م.

٧ :معن الطائي وأماني أبو رحمة، فضاءات القادمة، الطريق إلى بعد مابعد الحداثة، ٢٠١١، ص٦٥.

٨ : طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، ٢٠١٠، مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم المصطلحات الثقافية والمجتمع، ترجمة سعيد الغانيمي، ص٤١.

٩ :شاكر لعيبي، السرديات الكبرى والسرديات الصغرى، مجلة البحرين الفصلية الثقافية، العدد٦٦، ٢٠١١.

١٠ : السعنوسي، سعود، ساق البامبو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣، ص١٥٢, ١٥١.

١١ : المصدر نفسه، ص١٥٢, ١٥١.

١٢ : المصدر نفسه، ص١٥٢, ١٥١.

١٣ : المصدر نفسه، ص٦٥.

١٤ :المصدر نفسه، ص١٩٣, ١٩٢.

١٥ :الرواية ص، ٧٧.

١٦ : الراية ص، ١٨٥.

١٧ : الرواية ص٢١٠.

١٨ :الرواية ص٢١١.

١٩ :الرواية ص٢٣٣.

٢٠ : الرواية ص٢٤٩.

٢١ :الرواية ص٢٢٨.

٢٢ :الرواية ص٣٦٦.

٢٣ :الرواية ص٣٠٣.


ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2